

الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة

في جنوب الشام (الأردن وفلسطين)

في العصر المملوكي

د. يوسف درويش غناتي

جامعة اليرموك

الدراسات والبحوث في التاريخ

الطاعون مرض وبائي معد ينتقل الى الانسان عن طريق الحيوانات القارضة كالجرذان ، ويصيب الغدد الليمفاوية ، وخاصة غدد الفخذ وتحت الابط والاذن ، فتتضخم وعنها تنتقل الميكروبات الى الدم ، فيصاب المريض بالحمى شديدة ويتقيأ دما لمدة ثلاثة ايام دون انقطاع . وفي العادة فان هذه الاورام التي تصيب الجسد يوجد بها مادة سوداء في حجم حبة العدس ، فاذا تقيحت نجا المريض ، وان بقيت صلبة فمعنى هذا هلاك المصاب في اليوم الخامس من الإصابة . وأحيانا يصاب الجسم بالبثور والدمامل السوداء وتنتشر في أماكن متعددة منه . ونعت الطاعون في المصادر العربية ((بالوباء)) و ((الفناء العظيم)) ، اما المصادر الأوروبية فنعتته بالموث الاسود (Black death) . ويصف أبو المحاسن أعراضه فيقول : « كان يخرج خلف اذن الانسان بثرة فيخر صريعا ، ثم صار يخرج للانسان كبة فيموت ايضا سريعا ، ثم خرجت بالناس خيارة فقتلت خلقا كثيرا ، ثم صار الآدمي يبصق دما ويموت من وقته » (١) . والطاعون سريع الانتشار شديد الفتك حتى بالحيوانات على اختلاف أنواعها (٢) .

وذكرت المصادر ان بلاد الشام أصابها في سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) ما عرف « بطاعون عمواس » (٣) ، وكان عاما ببلاد الشام والعراق ومات في البصرة بسببه عدد كبير من الناس (٤) . وصاحب طاعون عمواس قحط وجفاف ، واكثره كان ببلاد الحجاز (٥) ، فأصاب الناس مجاعة شديدة ولزبة وجدوب وقحوط أدى الى فناء العديدين وهو ما سمي « بعام الرمادة » (٦) .

ثم أصاب فلسطين في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) طاعون وصف « بأنه طاعون جارف ربما أتى على جميع أهل البيت فخرت أرضهم وتعطلت (٧) ، فلم تجد الأرض من يملكها أو يستغلها ، فتحولت ضياع كثيرة الى الدولة وأصبحت « ضياعا للخلافة » (٨) ، فأوكل بها من يزرعها ويعتني بها .

اما اشد انواع الطاعون فتكا وأوسع انتشارا فذاك الذي انتشر في العصر المملوكي ، ووصفته المصادر العربية « بالفناء الكبير ، او الطاعون الاعظم » (٩) ، وشمل كل أنحاء العالم . وكان ابتداءه في حلب سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ، ومنها انتشر الى جميع بلاد الشام ، فأصاب الاردن وفلسطين ، وعم اكل مدينة وقرية . وعن طريق السفن التجارية انتقل الى بلاد الفرنج (اوروبا) فأصاب قبرص ، والاندلس ، وايطاليا وفرنسا والمانيا ، والدول الاسكندنافية وروسيا ، وبريطانيا (١٠) .

واستمر الطاعون يفتك بمنطقة الاردن وفلسطين منذ منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) . وكان أشده ذاك الذي ابتدا سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤١ م) ، فأصاب أولا واسط آسيا والصين ثم الهند ، وانتقل غربا بواسطة المسافرين الى بلاد الاناضول والعراق . وفي مستهل جمادى الاولى ٧٤٨ هـ (٩ آب أغسطس) ١٣٤٧ م) ظهر بحلب (١١) ، فعم جميع بلاد الشام ثم انتقل الى مصر ، ومنها الى أوروبا نقله التجار الجنوبيون الى ايطاليا (١٢) . ويصف ابو المحاسن هذا الطاعون فيقول : « أفنى بلاد صفد والقدس والكرك ونابلس والسواحل وعراب البوادي ، حتى أنه لم يبق بلد جنين غير عجز واحدة خرجت منها فارة ، وكذلك وقع بالرملة وغيرها وصارت الخانات ملانة بحيف الموتى » (١٣) . اما ابن بطوطة فذكر أن الطاعون أصاب عجلون وبيت المقدس (١٤) ، وأن غزة فنيت بسببه ، وأكد ذلك كل من المقرئزي وأبي المحاسن ، فذكر أن غزة فقدت اثنين وعشرين ألفا من سكانها (١٥) .

وعقب الطاعون أصيبت بلاد الشام سنة ٧٩٠ هـ (١٣٨٨ م) « بوباء ومرض كثير » ، فأصاب غزة والقدس ودمشق ، وأدى الى هلاك خمسة آلاف شخص في شهر واحد في مدينة دمشق لوحدها (١٦) . ثم عاد الطاعون للمنطقة في السنوات ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م) ، ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ، ٧٩٥ هـ (١٣٩٢ م) ، فأصاب شمال الاردن والاعوار وغزة وأدى الى هلاك اعداد كبيرة من سكانها (١٧) . ولكن سرعان ما عاد الطاعون والوباء والحميات الى البلاد في السنوات ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م) ، ٧٩٧ هـ (١٣٩٤ م) ، ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ م) ، ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) ، ٨٢٦ هـ (١٤٢٣ م) ، فاهلك العديد من سكان الاردن وفلسطين (١٨) وقدر ابن الصيرفي عدد من مات في بلاد الشام في سنة ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) بستة وثلاثين ألفا (١٩) .

وفي سنة ٨٣٣ هـ (١٤٢٩ م) تفشى الوباء في الاردن وفلسطين ، واشتد تأثيره في غزة والرملة والقدس وصفد ، فمات بسببه خلائق لا يحصى عددهم (٢٠) . ووصف المقرئزي هذا الوباء بأنه يشبه النزلات ، اذ كان ينحدر من الدماغ الى الصدر ، فيموت

الانسان في اقل من ساعة بغير تقدم مرض ، وكان اكثره في الاطفال والشباب (٢١) . ثم عاد الوباء للاردن وفلسطين في سنة ٨٤١ (١٤٣٧ م) فمات الكثيرون ، وكان اشدّه في غزة والرملة ومنطقة الاغوار . (٢٢) وباعتقادي ، ان هذا الوباء الذي تقدم وصفه ، هو نوع من انواع الحميات القوية التي كانت تفتك بالناس بهذه السرعة وبهذا الشكل الخطير . واستمر الطاعون يفتك بالاردن وفلسطين في السنوات ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) ، ٨٨١ هـ (١٤٧٦ م) ، ٨٩٧ هـ (١٤٩١ م) ، وافنى العديد من السكان (٢٣) .

اما الجفاف الذي اصاب الاردن وفلسطين في العصر المملوكي فكان مزمانا في اكثر الاحيان لوباء الطاعون ، ففي سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٤ م) اصاب البلاد جفاف فانهبست الامطار ، وجفت الابار وانعدمت الزراعة ، وهلك المواشي ، فنزع الناس عن بلادهم ، وتعطلت حركة التجارة الداخلية في المدن وتسبب ذلك في كساد اقتصادي كبير ، والى موت العديدين جوعا (٢٤) .

ثم ان بلاد الشام عامة اصبحت في سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٧ م) « بالقحط العظيم » ، فجفت الابار وانخفض منسوب مياه الانهار حتى انها لم تكن قادرة على ادارة الارحية المدة لطحن الحبوب ، فأغلقت لذلك ارحية عديدة (٢٥) . وجفت الينابيع في أنحاء متفرقة من البلاد ، وأدى الجفاف الى هلاك الناس وانعدام الزراعة واتلاف المحاصيل الزراعية وقلة مياه الشرب (٢٦) ، فارتفعت الاسعار واضطر الناس الى اكل الشعير لعدم وجود القمح . وباع الناس أغلى ما لديهم بأبخس الاسعار لشراء الطعام ، وفي هذا القحط قال الشاعر :

سنين القحط قد دارت علينا	وعمت للكبير مع الصغير
وبعنا الفرش والبسط الغوالي	ونمنا بالثياب على الحصير
لقينا من اذاها ما لقينا	وزاحمنا الحمير على الشعير (٢٧)

ونتيجة لهذا القحط قل الخبز في الاسواق ، وصار الناس يتزاحمون على الافران صفوفا خلف بعضهم من المطّلع الى المغيّب ، وهو عجيب أسود « وكثير من الناس ما يحصل له خبز ، وبقي الرجل يقف نصف يوم حتى يحصل له خبز » (٢٨) . وقد ارتفعت اسعار اللحوم وانعدمت الفواكه والخضراوات من قلة الماء ، وكان الناس في شدة عظيمة (٢٩) .

ثم أن القحط اصاب الاردن وفلسطين سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) « فاجذبت اراضي بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة لعدم نزول المطر في اوانه ونزح كثير من سكان هذه البلاد عن اوطانهم وقلت المياه عندهم » (٣٠) . وذكر المقرئ في

سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٥ م) ان جنوب الشام أصيب بقحط وجفاف أدى الى ارتفاع الاسعار في بلاد غزة والرملة والقدس ونابلس والساحل ودمشق وحران وحماه (٣١) .

ومن الملاحظ ان سنين القحط والجذب كانت متزامنة مع سني الطاعون والوبئة فآثر ذلك في بيئة جنوب الشام فقلت المواد الغذائية وأصيب الناس بالمجاعة والعطش والفناء الكبير . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل تعرضت البلاد في تلك السنوات انعجاف لزحف الجراد القادم عبر الصحراء ، فآثر في البيئة الزراعية والنباتية وزاد من عناء المواطنين وبؤسهم . ففي سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ظهر بالشام جراد عظيم لم يسمع بمثله وامتد من مكة الى الشام ، وكان أكثره بحوران ومنطقة الاردن حتى أكل الاشجار والاشخاب وأبواب الدور ، « وكان من شأنه بعجلون أنه امتلات منه المدينة وغلقت الاسواق وطبقت أبواب الدكاكين والطاقت وسدت الابواب وحضروا نصلاة الجمعة فملأ عليهم الجامع وترأس على الخطيب على المنبر حتى شغلته عن الخطبة ، وأنتنت (المدينة) لكثرة ما قتل منه » (٣٢) .

من خلال سردنا للاحداث السابقة نلاحظ أن منطقة جنوب الشام (الاردن وفلسطين) أصابها الفناء العظيم (الطاعون) ثم الوباء والقحط عدة مرات منذ أوائل القرن الاول للهجرة (السابع الميلادي) ، وحتى أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فما تأثير ذلك في البيئة الاردنية الفلسطينية ؟؟

وصفت المصادر منطقة الاردن بالخصوبة والمناخ المنعش، فشمالها كان من أحسن المناطق الصحية في العالم (٣٣) . وغطت غابات السرو والسنديان والبلوط معظم مرتفعات عجلون ومؤاب والشره ، وانتشرت الينابيع في الاودية العديدة شمالها وجنوبها . أما سهولها فاشتهرت بالخصوبة ووفرة الغلات في كل من عجلون والبلقاء والشوبك والكرك (٣٤) ، وكثر القمح في عمان والصلت فوصفت « بصدن الجوب » . أما غابات الزيتون فانتشرت في عجلون ومؤاب ووادي موسى والشره ، وكانت كروم العنب في كل مكان من الاردن . وذكرت المصادر أن جبال مؤاب اشتهرت بأشجار اللوز والارمان والتين (٣٥)، واودية الكرك والصلت وحسبان بفواكهها المفضلة من المشمش والارمان (٣٦) وأشجار الجوز ، حتى ان سيلا اجتاحت اودية الكرك سنة ٧٨٧ هـ (١٣٨٥ م) فأخذ في طريقه اثني عشر ألف شجرة جوز (٣٧) . ووجد في الاغوار زراعة الارز وقصب السكر والموز والنيل والنخيل (٣٨) ، وانفردت مدينة بيسان بنبات السامان الذي يصنع منه الحصر السامانية (٣٩) . ووجد النخيل في ايلة (العقبة) ومدينة زغر في الغور الصافي جنوب البحر الميت (٤٠) . أما المراعي فقد انتشرت في الجبال والسهول والاغوار والبادية وكثرت فيها الاغنام والابقار والابل (٤١) .

أما منطقة فلسطين فقد وصفها الجغرافيون بالخصب ووفرة الانتاج ، فاشتهرت المناطق الجبلية في الجليل ونابلس والقدس والخليل بالأشجار المختلفة كالسرو والسنديان والخروب والسماق ، والزيتون والكرمة والتين والجميز ، والتفاح والخوخ واللوز والجوز والرمان والشمش (٤٢) . أما السهول الساحلية فاشتهرت بقصب السكر والبرتقال والسفرجل والحبوب كالقمح والشعير والسمسم والذرة والخضراوات بأنواعها (٤٣) . وهكذا فاننا نرى ان منطقة جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر الاسلامي كانت من أخصب المناطق واجملها ، ووفرة الفلات ذات مناخ منعش وطبيعة جميلة وكثافة سكانية عالية .

ولكن الطاعون والوباء ثم القحط والجفاف تركت آثارها بارزة في البيئة الاردنية الفلسطينية . فالطاعون أصاب البلاد منذ القرن الاول للهجرة (السابع الميلادي) ثم تتابع في فترات أخرى لاحقة . فالطاعون الذي أصاب البلاد في عهد الرشيد اثر على الديموغرافية في الاردن وفلسطين ، وفنيت عائلات بأكملها ، وتمطلت الزراعة وفلاحه الأرض ، مما دعا الدولة الى تأجير هذه الاراضي لفلاحين جدد ، بل ان قسما من هذه الاراضي أصبح ملكا للخليفة (٤٤) .

أما الطاعون والوباء الذي أصاب البلاد في منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) فكان تأثيره كبيرا في ديموغرافيتها فمات العديدون من سكان الاردن وفلسطين ، وفقدت البلاد ثلثي سكانها (٤٥) . فابن بطوطة ذكر ان عجلون والقدس وغزة كان معظمها خاليا من كثرة من مات فيها من الطاعون (٤٦) . أما جثثين والزملة واللد والكرك والاعوار فبعضها فقد كل السكان ، لذا تأثرت الزراعة ولم تجد الأرض من يزرعها ، فكانوا يجدون الفلاحين أمواتا خلف محارثهم ، وبعضهم مات حبيده البذار (٤٧) . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل أصاب الطاعون الطيور كالنعام والغربان والحيوانات كالأبقار والابل والاعنام وأهلك اعدادا كبيرة منها (٤٨) . وامتد الى الحيوانات البرية ، فوجدت الاسود والحمر الوحشية والذئاب والخنازير والارانب مطعونة في منطقة الاعوار (٤٩) . فالطاعون والوباء (الحميات) اثر في ديموغرافية البلاد في العصر المملوكي واستمر وجوده في المنطقة منذ اواسط القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى اواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، وادي الى نقص كبير في عدد السلكان . فتوقف النمو السكاني تماما في فترة من الفترات ، فالاطفال الذين يولدون كانوا يموتون بعد يوم أو يومين (٥٠) . وحدث مثل ذلك في أوروبا فقد توقفت الخصوبة والنمو الديموغرافي تماما بسبب طاعون القرن الرابع عشر الميلادي (٥١) . وأفنى هذا الطاعون ثلث سكان أوروبا ، وفقدت كل من جنوا وفينيسيا

سيتين ألفا من سكانها (٥٢) ، أما فلورنسا ولندن فقدت كل مدينة منهما مئة ألف نسمة ، وفقدت بيزا سبعة أعشار سكانها . أما سكان قبرص فقد هلكوا جميعا ، وفقدت ألمانيا مليوناً واربعا من سكانها ، وفرنسا ثلاثة أرباع سكانها وإيطاليا نصف السكان (٥٣) . وهذا النقص الهائل في عدد السكان كان تأثيره كبيرا في الثروة الزراعية والاقتصادية والحيوانية ، فانخفضت بل وقلت مواردها ومردودها على البلاد .

وقد تأثر نظام الملكية في الشام جميعها نتيجة للطاعون بسبب هلاك العديد من الملاكين والمزارعين ، فانحلت الاقطاعات بموت أصحابها ، وانتقلت ملكية الاراضي الى ملاكين جديدين (٥٤) . وظهرت طبقة جديدة من العامة كالخياطين والاساكفة ملكت الاقطاعات (٥٥) ، ولم يسمح لها في السابق امتلاك مثل هذه الاملاك - لان الاقطاعات المملوكية كانت في معظمها عسكرية من حق الامراء والاجناد فقط - بل ان معظمهم ملك البيوت والاموال لموت أصحابها ولعدم وجود من يرثها او يطالب فيها (٥٦) . ولقلة الفلاحين العاملين في الارض حدثت الدولة من حرية الفلاحين ومنعت انتقالهم من ارض الى اخرى الا بعد مرور ثلاث سنوات ، وان فعل وترك الارض أعيد اليها بالقوة (٥٧) . ونرى ان الامر حدث في نفس الوقت في انجلترا ، فبعدما أصيبت البلاد بالطاعون قرر البرلمان بقانون العمال عودة الاقنان وعمال الحرف الى اجورهم القديمة وحرم عليهم الانتقال من جهة الى اخرى (٥٨) .

وكان من نتيجة الطاعون كذلك ان تأثرت الثروة النباتية فلم تجد البساتين والكروم من يعتني بها لموت أصحابها ودوابهم ، فخربت وجفت اشجارها ، وادى ذلك الى نقص في الثروة الشجرية والنباتية . ثم ان القحط والجفاف الذي واكب الطاعون والوباء في العصر المملوكي اثر على البيئة في الاردن وفلسطين ، فهلكت الحيوانات وجفت الزروع والاشجار وخربت البلاد لجفاف المياه من الينابيع ونقص منسوبها في الانهار ، أضفت الى ذلك ما سببه الجراد الكثيف الذي دهم البلاد في تلك الفترة الحرجة من تاريخها وادى ذلك الى غلاء في الاسعار فهجر السكان والفلاحون قراهم (٥٩) . اذن حدث تغير في الكثافة السكانية في بلاد الشام ، وهجرة داخلية ، مما ادى الى تغييرات في التجمعات السكانية آنذاك . وهكذا فقد كان للعوامل الطبيعية السابقة من قحط وجفاف وأوبئة وطاعون وجراد آثار مباشرة في عدم النمو السكاني . فالنمو السكاني هو الام للتقدم الزراعي الذي هو متطلب طبيعي للتقدم التجاري والصناعي ، والنمو السكاني يحتاج الى البيئة النقية المناسبة ، والى الامن والاستقرار الذي كان مفقودا في فترات لاحقة من العصر المملوكي الثاني . ففترات التناثر بقيادة تيمورلنك ، والتطاحن

الملوكي على السلطة وثورات النواب والماليك ثم حرب الماليك مع العثمانيين في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، ثم الاجتياح العثماني للبلاد ومهاجمة العشير للمراكز الحضرية بعد ان انحل حبل الامن والاستقرار ، وضعف السلطة المركزية ، لكل ما سبق خربت القرى وهجرها سكانها ، فلم يات القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي الا وعدد كبير من القرى خال من السكان ، حتى ان السجلات العثمانية نعت العديد منها بـ (خراب وخالي) (٦٠) .

وكان للطاعون والوباء والقحوط آثار سلبية في المجتمع الشامي بشكل عام ، فانتشر الفساد والفسق والفجور ، وتعاطى الناس الفواحش ، فابن صصرى يقول في سنوات القحط العظيم الذي اصاب الشام : « وقد رأينا في هذا الزمان من المنكرات ما لم نكن نراه ، وسمعنا فيه ما لسمعناه ، وابصرنا عجائب ، وشاهدنا غرائب ، فلهذا الحال قلت الارزاق ، وكسدت بضائع الاسواق ، وقل نزول الغيث ، وتعطلت أسباب الناس ، وقست قلوب الملوك ، وتجبر الغني على الصعوك ، فهاكت الرعية وعظمت البلية » (٦١) . وبسبب القحط والغلاء ظهرت طبقة طفيلية استغلت حاجة الناس ، فاحتكرت الاصناف وتلاعبت في اقوات المواطنين ، وفرضت الاسعار التي تريدها ، مما دعا العامة الى الثورة على هؤلاء المحتكرين ، فحطمت قصورهم ، واستولت على اهرأاتهم وما بها من مغلات وأطعمة (٦٢) . وعلى تقويض ذلك حدث في فترة انتشار الطاعون والابوة والموت الكثير ، فوجد ان الاسعار انحطت ، وبيعت السلع بأبخس الاسعار لعدم وجود من يشتريها ، وانحطت قيمة الذهب والفضة .

ومن الآثار السلبية للطاعون على المجتمع الشامي بشكل عام . قلة الصناعات والعمال ، وارتفاع الاجور ، مما اضطر الدولة الى استخدام القوة لمنع مثل ذلك وارغام العمال على القبول بأجور معقولة (٦٣) . وحدث نفس الشيء في الدول الاوروبية اثناء الطاعون الكبير ، لكن دولها تغلبت على هذه المعضلة وما قد يترتب عليها من نتائج ثورية قد تؤدي الى تغييرات هامة في مجتمعاتها ، فسنوا القوانين التي حرمت على سائر عمال الحرف تقاضي الاجور الباهظة (٦٤) .

كما ان التجارة تآثرت لعدم وجود السلع ومن يحملها او ينقلها ، وانعكس ذلك على البلاد ، لابل على الدولة عامة ، فقلت مواردها المالية مما دفع السلطان للاستدانة من تجار الكارم لتجريد الحملات لمحاربة الثائرين على الدولة (٦٥) .

ومن النتائج أيضا ظهور حركات التمرد والعصيان بعد ان انحل حبل الامن في الدولة المملوكية بشكل عام لموت اكثر جيشها في الطاعون والوباء ، وخصوصا في

دولة المماليك الثانية (٦٦) . ولقلة مواردها الاقتصادية والمالية لم تتمكن من شراء ممالك جدد تزود بهم قواتها العسكرية ، مما دفع بعض الأمراء للشورى على السلطة المركزية ومحاولة الاستقلال في نياباتهم وخصوصا في بلاد الشام (٦٧) . ومما لا شك فيه ان ذلك كان سببا من اسباب ضعف الدولة المملوكية وعدم استطاعتها الصمود والوقوف امام العثمانيين في اوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) .

ونتج عن ذلك ايضا تغييرات اجتماعية خطيرة ، فظهرت طبقة جديدة امتلكت الاراضي والاموال وكانت في السابق محرومة من هذا الامتياز ، فنرى اصحاب الحرف العامة يمتلكون الاقطاعات علما ان هذه الاقطاعات كانت حكرا على الامراء والاجناد مقابل تقديمهم خدمات عسكرية للدولة . وكان للكساد الاقتصادي والقحط والمجاعة والموت باعداد كبيرة مردوده الاجتماعي ، فآثر في السلوك والقيم والاخلاق العامة ، وهجرت قرى عديدة واصبحت خربة خالية من السكان . وحدثت ردة لدى المواطنين في الشام ، فأصابهم اليأس فعمدوا الى الفسق والفجور والملاذات هروبا من واقعهم المرير ونهايتهم السريعة . بينما عمد آخرون للجوع الى الله بسبب الضائقة التي كانوا يعانون منها ، فهرعوا الى المساجد ودور العبادة يطلبون الرحمة من الله ، وحدث نفس الشيء في أوروبا . وقد شاهد ابن بطوطة لوحة معبرة عن التوبة والرجوع الى الخالق اثناء مروره بدمشق سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فقال : ان الدمشقيين « باتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع ثم صلوا الصبح ، وخرجوا جميعا على اقدامهم ، وبأيديهم المصاحف والامراء حفاة . وخرج جميع اهل البلد ذكورا واناثا ، صفارا وكبارا ، وخرج اليهود بتوراتهم ، والنصارى بأنجيلهم ، ومعهم النساء والولدان ، وجميعهم باكون متضرعون الى الله بكتبه وانبيائه (٦٨) ، ان يزيل عنهم هذا الوباء ويحميهم منه ، وكذا فعل الناس في الكرك والقدس وندروا النذور لهذه الغاية » (٦٩) .

وتسبب الطاعون في موت اعداد كبيرة من علماء وفقهاء البلاد ، فابن بطوطة مر بالقدس اثناء انتشار الطاعون في الاردن وفلسطين سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فقال : « وجدت من كنت اعلمه من جميع الاشياخ بالقدس قد انتقلوا الى جوار الله تعالى ، فلم يبق منهم الا القليل » (٧٠) . وحدث مثل ذلك في غزة التي فقدت ثلاثة ارباع علمائها وفقهائها وشهودها العدول (٧١) ، وانسحب ذلك على بقية البلاد الشامية والمصرية ، ولاشك ان موت العديد من علماء وفقهاء البلاد كان له تأثيره على الحياة العلمية وتطورها .

خاتمة :

وفي نهاية هذه الدراسة نشير الى ما يلي :

١ - أصيبت المنطقة بالطاعون منذ عام ٦٣٩ م وهو ما عرف بطاعون عمواسي وصاحبه جفاف وقحط ومجاعة . ثم طاعون القرن الثامن الميلادي في عهد هارون الرشيد ومن نتائجه انحلال الملكيات وعدم وجود من يمتلك الارض ويستغلها .

٢ - ثم عاد الطاعون والوباء للمنطقة والذي سمي بالطاعون الاعظم أو الموت الاسود منذ سنة ١٣٤٧ م ، وعم كل مدينة وقرية ، وكان هذا عاما في العالم ، ولكنه بقي في منطقتنا مدة اكبر اذ استمر من اواسط القرن الرابع عشر حتى اواخر القرن الخامس عشراي (١٥٠ سنة) .

٣ - صاحب الطاعون في مرات عديدة جفاف وقحط ومجاعات وفي احيان كثيرة انتشر الجراد الذي فتك بالثروة والغطاء النباتي في البلاد .

٤ - لم تكن الدولة سلبية ازاء ذلك ، فمنذ العصر الايوبي انتشرت البيمارستانات (المستشفيات) في جميع انحاء بلاد الشام وذكرت المصادر ان سبب ذلك هو الأوبئة التي فتكت بالناس ، فوصل عدد المستشفيات الى (٣٠) مستشفى ، معظمها كان يدرس الطب ، لذا فقد كثر الاطباء ولدينا كتب تراجم لمئات منهم ، بل وجد في معظم القلاع اطباء للمحافظة على سلامة الجنود والسكان المجاورين .

٥ - اذا كان الطاعون الذي اصاب اوربا ادى الى تغييرات اجتماعية كبيرة بل كان مقدمة للثورة الصناعية وانحلال نظام الاقطاع فما هي التغييرات التي اصابته المنطقة عامة وهل كانت بنفس الدرجة التي حدثت في اوربا؟؟ .

٦ - الانقلابات او التغييرات التي حدثت في المجتمعات الاوروبية لم تكن مفاجئة بل انها ادت الى تغييرات أساسية بطيئة نستطيع ان ندرجها في مجملها في قائمة الانقلابات ، فهل حدث ذلك في منطقتنا؟؟ .

٧ - البحوث الاوروبية رتبت على طاعون القرن الرابع عشر ، معظم الحركات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فهل نستطيع ان نرتب على الطاعون في بلاد الشام تغييرات اقتصادية واجتماعية وسياسية؟؟ .

٨ - المصادر التي لدينا تذكر ان قرى منطقة الكرك في نهاية الدولة المملوكية كانت ٤٠٠ قرية وفي منطقة البلقاء حول عمان ٣٠٠ قرية وفي شمال الاردن وحوران ١٢٠٠ قرية ما عدا منطقة الاغوار وان معظم المدن كانت عامرة مزدهرة بالسكان كالكرك والشوبك وعمان والمقبة وعجلون واربد وجراص والسلط وغيرها .

٩ - هناك تساؤل كبير لماذا هذه الخرائب المنتشرة في جنوب البلاد وشمالها والتي تبلغ المئات ولماذا خربت واين سكانها؟؟ ثم لماذا أصبحت البتراء والشوبك وعمان ومادبا وجرش وعجلون وجراص وبيت رأس وجدرا وفحل وقويلبه وأم الجمال خرائب قليلة السكان ، فعند وصول الرحالة الاوربيين الى المنطقة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ذكروا بل وصفوا قلة السكان في كل هذه المراكز الحضارية القديمة .

١٠ - اذن لابد من وجود سبب لكل هذا التغيير في الديموغرافية السكانية ليس سببه الانسان وحده بل لابد من وجود عوامل طبيعية قاهرة كانت فوق قدرة الانسان فلم يتمكن من السيطرة عليها وادت الى تدمير وخراب كل هذه المدن والقرى ، اذا اخذنا بعين الاعتبار ان كل هذه المدن والقرى كانت عامرة في العصر الايوبي والمملوكي .

١١ - وهنا اطرح سؤالا الى الباحثين والمهتمين بتاريخ المنطقة ، هل تعتقدون ان هناك دورة مناخية ؟ فقد ذكر البعض ان الاردن مثلا كانت في فترة ما أكثر رطوبة وأكثر أمطارا وغطاؤها النباتي كان كثيفا .

١٢ - وأخيرا اتوجه الى الباحثين بأن يأخذوا هذه النقطة بعين الاعتبار ، وان يبحثوا جديا في أسباب هذه التغيرات في منطقتنا وهذا الاضمحلال السكاني الذي أدى الى خراب البلاد وذلك من خلال تجليل العظام التي تعود لهذه الفترة واعطائنا سببا علميا لهذا الوباء الذي لم يتمكن الانسان من السيطرة عليه ، وكذلك سببا علميا لهذه الجذوب والقحوط والمجاعات التي فتكت في المنطقة في العصر الوسيط . وباعتقادي أن في هذا جواب قاطع لكل الادعاءات التي تعلل سبب هذا الاضمحلال بالحكم العربي الاسلامي في المنطقة ، فنحن في العصور الوسطى بلغنا أوج التقدم الحضاري والعلمي والمصادر التاريخية تثبت ذلك .

الحواشي :

- (١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٨ .
- (٢) أبو المحاسن ، نفس المصدر ، ص ١٩٨ .
- Nohl, The Black death, London, 1924, P. 18.
- (٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ م ، ج ٤ ، ص ٦٢ .
- عمواس : بلدة في فلسطين قرب القدس وعلى بعد ستة أميال من الرملة ، بدأ طاعون عمواسي منها زمن الخليفة عمر بن الخطاب . (لي سترايج ، ص ٤٢٦) . وقد دمرتها اسرائيل حاليا واجلت سكانها عنها وجعلت منها منتزعا عاما . (الباحث) .
- (٤) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٢ .
- (٥) الطبري ، المصدر نفسه ، ص ٩٦ .
- (٦) يقول الطبري : « اصاب الناس سنة بالبلدية وما حولها ، فكانت تسبى اذا ربحت ترابا كالمعاد فسمي ذلك العام عام الرمادة » . (ج ٤ ، ص ٩٨) .
- (٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٦٣ .
- (٨) البلاذري ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
- (٩) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، تحقيق علي المنصور ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ج ١ ، ص ١١٤ .
- (١٠) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٧ .
- أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٨ .
- Nohl, op. cit. P. 18.
- (١١) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٥ .
- أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٨ .
- Nohl, op. cit. P. 18.
- (١٢)
- (١٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٧ .
- (١٤) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ، ص ٧٤٩ .
- (١٥) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٥ .
- أبو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٩٨ .
- (١٦) ابن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، تحقيق عدنان درويش ، دمشق ١٩٧٧ م ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

د. يوسف غوانمة

- (١٧٩) ابن قاضي شهبة ، نفس المصدر ، ج ٢ ص ٨١ ، ٨٢ ، ١٢٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ .
- (١٨٠) ابن قاضي شهبة ، المصدر نفسه ، ص ٥١٢ ، ٥٧٨ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ .
- المقرئزي ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ٦٣٩ .
- (١٩) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان ، ج ٢ ص ٣٦٩ .
- (٢٠) المقرئزي ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ٨٣٦ .
- ابو العباس ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٣٢٨ ، ٣٤٨ .
- (٢١) المقرئزي السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ٨٢٤ .
- يوسف غوانمة ، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ص ١١٨ .
- (٢٢) المقرئزي ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ١٠٢٩ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٤ .
- (٢٣) العنيلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج ٢ ص ٢٨٦ ، ٣١٨ ، ٣٦١ .
- يوسف غوانمة ، تاريخ نيابة بيت المقدس ، ص ١١٩ .
- (٢٤) ابن صصري ، العدة المصينة في الدولة الظاهرية تحقيق وليم برنز ، كاليفورنيا ، ص ١٦٤ .
- (٢٥) ابن صصري المصدر نفسه ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .
- ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٤٨ .
- (٢٦) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .
- (٢٧) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .
- (٢٨) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ .
- (٢٩) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ .
- (٣٠) المقرئزي ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ٦٠٩ .
- (٣١) المقرئزي ، المصدر نفسه ، ص ٧١١ .
- (٣٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١ ص ٤٥٧ .
- (٣٣) Smith, The historical geography of the Holy Land, p. 535.
- (٣٤) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٨٦ .
- ابو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٢٨ ، ٢٤٥ .
- (٣٥) الاديسي ، نزهة المشتاق ، القسم الخاص ببلاد الشام ، ص ٥ .
- (٣٦) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ . ابو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ ، القرطبي ، اخبار الدول واثار الاول ، ص ٢٥٩ .

- (٢٧) ابن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، دمشق ١٩٧٧ ، ج ٣ ص ١٥٧ .
- (٢٨) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٦٩ ، المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٩٢ ، الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٣ ، ٤ .
- (٢٩) الادريسي ، ص ٤ .
- (٣٠) المقدسي ، ص ١٧٩ . Fulcher of Chartres, P. 146.
- (٣١) ابن صغرى ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ .
- (٣٢) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٩ ، الحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ٢ ص ٥٩ .
- (٣٣) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٣٥ ، الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١١ ، ابن بطوطة ، ج ١ ص ٣٥ .
- يوسف غوانمة ، تاريخ نيابة بيت المقدس ، ص ٨٠ ، لي سترانج ، ص ٩٧ - ٩٩ ، ٢٥٧ ، ٢٨٩ Benvenisti, The Crusades in the Holy Land, P. 217.
- (٣٤) البلاذري ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
- (٣٥) يوسف غوانمة ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .
- (٣٦) ابن بطوطة ، ج ٢ ، ص ٧٥٠ .
- (٣٧) ابو المعاسن ، النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٩٨ .
- (٣٨) Nohl, op. cit. p. 18.
- (٣٩) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ص ٧٨٤ ، ابو المعاسن ، المصدر السابق ، ص ٢٠٩ ، وانظر ابن اياس ، ط الشعب ، ص ١٦٤ .
- (٤٠) ابو المعاسن ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ . Nohl, op. cit. p. 40
- Lopez, The Commercial revolution in the middle ages, p. 29.
- Kedar, Merchants in Crisis, p. 165.
- Kedar, op. cit, p. 5, 19. (٥٢)
- Nohl, op. cit. p. 38, 40. (٥٣)
- (٥٤) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان ، ج ٢ ص ٣٣٠ .
- (٥٥) ابو المعاسن ، المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .
- (٥٦) ابو المعاسن ، نفس المصدر ، ج ١٠ ، ص ٢٠٨ .

(٥٧) السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٣٤ ، فهو يقول : « وقد جرت العادة بان من نزع من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد الى القرية قهرا ويلزم بشد الفلاحة » .

(٥٨) محمد مصطفى زيادة ، دراسات في التاريخ الاقتصادي الاجتماعي ، بحث في التاريخ والاثار ، القاهرة ، ١٩٦٢م ، ص ١٦١ .

(٥٩) ابن صغرى ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، ٢٠٢ .

المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ٦٠٩ ، ٧١١ .

Utteroth & Abdal Fatah, Historical Geography of Palestine. p. 26.

(٦٠)

(٦١) ابن صغرى ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٦٢) ابن صغرى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٦٣) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢١٠ .

(٦٤) محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(٦٥) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٧١ .

الكارم والكارية ، هم التجار الذين كانوا يتاجرون بسلع الهند والصين ووجدوا في مدن دمشق والقاهرة والاسكندرية .

(٦٦) ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ٣٤٠ .

Kedar, op. cit. p. 14.

(٦٧)

(٦٨) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ص ١١٤ .

(٦٩) المصدر نفسه ، ص ٧٥٠ .

(٧٠) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ص ٧٥٠ .

(٧١) المصدر نفسه .

